■ الباب الرابع ■

الأهداف الكبرى لـ«نظام الملك» ووسائل تحقيقها

الفتوحات في عهدى : «ألب أرسلان» و «ملكشاه» .

إنشاء المدارس النظامية والمكتبات العامة والخاصة والمخطوطات النادرة .

دولة «نظام الملك» التي يحلم بوجودها كما خطّط لمعالمها ودعائمها الإدارية والاجتماعية في كتابه ـ سياستنامة ـ أو سياسة نامة .

تنوير: (التوسع وإنشاء المدارس لتأسيس دولة فضلى)

لقد شهد الوزير «نظام الملك» وهو يجوب البلاد من طوس إلى نيسابور ثم إلى بخارى وبلخ لتحصيل العلم وطلب العمل، دولة الغزنويين وهى تنهزم أمام جيوش الترك وتتراجع نحو الشرق الأقصى فتنكمش فيما وراء «جيحون» والشمال الغربى من الهند.. وسمع بدولة البويهيين وهى تنهار أمام جحافل «طغرلبك» الى أن تتلاشى وتقوم على أنقاضها دولة آل سلجوق ثم شهد وسمع ما تقاسيه الخلافة العباسية فى بغداد من هذه الدويلات الناشئة من ضروب المهانة والاستخفاف وما تلاقيه الشعوب المنضوية تحت لوائها من صنوف الجور والاستعباد.

وكان لهذه الحرب المستعرة فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى أثرها فى نفسه وهو يشبّ ويكبر، ويطوف ويتعلم، وكان الألم يحزّ فى نفسه وهو يرى العالم الإسلامى يحترب ويضطرب وينشقّ على نفسه باسم الدين تارةً، ثم يخرج ملوكه على طاعة الخليفة ويستهينون بالخلفاء والناس جميعًا باسم السياسة والحكم الصالح تارةً أخرى.. وكان الأمل فى المستقبل يحدوه ـ وهو سائر فى طريق المجد ـ وينمو معه حتى استحال الى أهداف أخذت تبرز وتنضج أمام ناظريه ثم أصبحت تتمثل وتتجسم فتملأ تفكيره وكيانه حين أتيحت له فرصة الدخول فى سلك موظفى ديوان ـ أحمد بن شاذان ـ فصارت شواغله آناء الليل وأطراف النهار، يعمل من أجلها جاهدًا متواصلاً ويسعى لتحقيقها بكل ما أوتى من جاه ونفوذ ومال.

ومادام اختلاف الأديان والمذاهب يدفع الناس إلى القتال والحرب فلم لا توجد رسالة واحدة ومادام دين الإسلام خيرها وأصلحها لأنه آخرها وخاتمها فلِمَ لايشملهم جميعًا. وعلى هذا فقد انتهت أهدافه إلى نتيجتين أساسيتين هما: التوسع فى الفتح لنشر الدين الإسلامى، ثم التوحيد بين الأقطار المفتوحة على أساس دينى.. وكان طبيعيًا أن يجد أمامه سبيلين لا ثالث لهما، وهو يفكر فى وسائل تنفيذ مقاصده، هما: الحرب والتعليم. ومن أجل هذين فقد ألّف جيشًا قويًا للقضاء على حركات التمرد فى الداخل ثم الغزو إلى الخارج كما أسّس المدارس النظامية فى معظم الحواضر الإسلامية حتى شملت العراق وإيران وما وراء النهر.

وفى سبيل تحقيق غرضه الأول كان يعدّ الجيش إعدادًا منظّمًا ويزيد فى عدده كلّما استطاع لذلك سبيلاً. لهذا وجد من الخطأ الكبير والخطر الجسيم على الدولة[1] وعلى تنفيذ مشروعاته تسريح ضباطه وإعفاء فريق منه، لاعتقاده بأن هذه الدولة لا يمكن لها أن تتحد ولا يمكن لأركانها أن تتوطّد، ولحقوق أهلها أن تصان، إلاّ بقوة الجيش[2]، وبقاء الشريعة، وأن اقتراح تخفيض عدد الجنود من أربعمائة ألف فارس إلى سبعين ألفًا لتوفير نفقات ـ ٣٣٠ ألف جندى ـ يكون عقبة كئودًا أمام مشاريعه فى الفتح وفى القضاء على العطالة. ولذلك اعتبر هذا الاقتراح خطرًا كبيرًا على أمانيه، لأنه يعرّضها إلى الفشل، ولذا

(١) بارتولد ـ تركستان ص ٣١٠.

(٢) سياستنامة، وفى راحة الصدور ص ١٣١-١٣٢ أن عدد الخيّالة العائدين لحرس السلطان ملكشاه وحده كان مؤلفًا من ٤٦ ألف جندى، والقزوينى ـ آثار البلاد ص ٢٧٦ وفيه ينقل القصة عن «سير الملوك» نفسه ويذكر أن العدد الذى اقترحه النظام ثمانمائة ألف بدلاً من سبعمائة لتكون الهند والسند والصين ومصر والحبشة والروم تحت طاعتنا. ويذكرها كذلك ابن الأثير فى الكامل ـ حوادث سنة ٤٧٣هـ، ولكن بشكل يختلف قليلاً عن الأصل الفارسى فى سياستنامة فيقول: بأن السلطان استعرض العسكر فى الرى فأسقط منهم سبعة آلاف رجل لم يرض عن حالهم فمضوا إلى ناحية أخيه تكش فثار على هذا واستولى على مرو الروذ ومرو الشاهجهان ونرمد وسار إلى نيسابور طامعًا فى خراسان وقيل: بإن النظام قال للسلطان: «إن هؤلاء ليس فيهم ذو صنعة غير الجندية فإذا أسقطوا لا تأمن أن يقيموا لهم رجلاً».

ناقش سلطانه بحماسة بالغة، وبسخرية ـ فى الاقتراح وصاحبه ـ لاذعة، لمعرفته بأنه من وحى المغرضين ضدّه، المفسدين للمملكة، فأجابه: أنه من الضرورى والمهم جدّا زيادة عدد الجيش إلى سبعمائة ألف جندى بدلاً من أربعمائة ألف جندى، وذلك بغية الاستيلاء على آسيا وأفريقيه وبلاد اليونان[1].

والحق أن إمبراطورية واسعة كهذه وفى القرون الوسطى لا تستطيع البقاء إلاّ بالجيش، فالإمبراطورية الرومانية تقف لها وراء الحدود الشمالية الغربية تهددها عندما تحسّ فى إدارتها ضعفًا أو تسمع بين حكامها اختلافًا، والخلافة الفاطمية من وراء تخومها الجنوبية الغربية ترصد أحوالها وتسجّل بواسطة دعاتها كل خلل أو عجز، وولاة الأمصار كلٌ يريد الاستقلال بإمارته واستغلال مواردها له ولأبنائه من بعده، فلم يكن بدّ من وجود جيش ضخم يحمى البلاد من ثورات العصيان فى الداخل والغزو من الخارج فضلاً عن خطة التوسع التى ينشدها الوزير «نظام الملك».

وكانت الخطوة الثانية التى عملها بعد إعداده الجيش هى القضاء على المتمردين والطامعين لاستتباب الأمن الداخلى، ثم الربط بين البيت السلجوقى والأسر الحاكمة فى بغداد وتركستان برباط المصاهرة ليسود الاطمئنان فيما إذا زحفت الجيوش للفتح الخارجى وكانت الخطوة الثالثة أن جمع الجيش بقيادة الأمير ـ ملكشاه ـ ورافقه بنفسه بأمر السلطان ـ ألب أرسلان ـ لفتح وان وميافارقين والقفقاس وكرجستان وتّم له النصر فيها بمهارة «النظام» وخططه الناجحة على الرغم من أنها كانت من الأماكن المتحكمة.

وفى سبيل تحقيق غرضه الثانى كان يرى وجوب محاربة الباطنية حربًا لا هوادة فيها لأنها خطر على الدولة فى الداخل والخارج، وخطر على الدين الإسلامى الذى هو القاعدة الأساسية للحكومة التى قصدها: فالباطنية تدعو إلى عقيدة جديدة وخلافة أخرى غير عباسية، فهى التى ستبعث الشقاق فى البلاد،

(١) مكرمين خليل ـ تركيا فى عهد السلاجقة ص ٦٣.

وتفرّق بين صفوف المواطنين، ولكنها لم تستعد قوتها بعد فتك «طغرلبك» بقائدها ـ البساسيرى ـ وأنصاره ليقوم بحملة قوية ضدها فما عليه إلاّ أن يتم فتحه فى غرب الدولة حتى يستولى على الشام ومصر، ويقضى على الفاطميين مركز هذه الفكرة ومصدر شيوعها، وأوشك أن يصل إلى غرضه هذا لولا تهديد الروم بالزحف على الثغور الذى اضطر «ألب أرسلان» راجعًا لمقابلته، وحدثت معركة «ملاذكرد» سنة ٤٦٣ هـ التى اغتيله السلطان بعدها بعامين قضاهما بالفتح وإخضاع الخارجين على الحكم.

وكان «النظام» يرى الدولة ـ كما يبدو ـ معرضةً لخطرين لا يقلّ أحدهما عن الآخر خطورة: الصليبية الممثّلة فى دولة بيزنطا الرومانية من الخارج، والباطنية الممثّلة فى إمامة الفاطميين بمصر، والتى انتشرت مبادؤها فى الداخل.. وكان عليه أن يجاهد فى الجبهتين فى آنٍ واحد ليحقق غرضه فى الاتحاد الإسلامى بين الأقطار البعيدة والقريبة.. لذلك جعل لسلطانه نموذجًا حيًّا من السلطان ـ محمود الغزنوى ـ يجب الاقتداء به، والاعتزاز بسيرته[1]، وما ذلك ـ كما نرجّح ـ إلاّ لأنه قام بطراز من الحكم فى الجانب الشرقى من البلاد الإسلامية يفيد أنه قد بلغ الأوج[2] من حيث القوة والفتح والتعصب للدين الإسلامى والمذهب السنّى حتى قتل الألوف من الرعيّة لاتهامهم بالتشيّع[3] ـ للإسماعيلية الباطنية.

إن فكرة الاتحاد ـ على أساس الدين ـ أى الاتحاد الإسلامى لا القومى قبال الاتحاد الصليبى والتى مازالت تثار فى عصرنا الحاضر بين الفينة والأخرى لأغراض سياسية، هى الهدف الذى كان يبتغيه من حروبه المتواصلة، لأن الفرس لا ينزعون إلى العصبية القبلية كما هى معروفة عند العرب وكان يشعر بأن الاتحاد بين الشعوب الإسلامية ضرورة سياسية وعقدية كما تمليها الضرورة

---

(١) سياستنامة.

(٢) بارتولد ـ تركستان ص ٢٨٧ (عن ابن الأثير).

(٣) ماكس فانتاجو ـ المعجزة العربية ص ٧٠، ٧١.

الإنسانية أمام الزحف الصليبى.. ولم يكن فى اتجاهه هذا سياسيًا محترفًا ليتخذ منه وسيلة لبلوغ الجاه وجمع المال والاحتفاظ بالمنصب، وإنما كان ـ كما يظهر من سيرته ـ رجل دولة، وصاحب رسالة ولم تكن تلك الأشياء بنظره إلاّ وسائل بواسطتها يصل إلى غايته وتأدية رسالته.

ومن الطريف حقًا أن تكون فكرة ـ الاتحاد ـ التى دعا إليها «النظام» منذ تسعة قرون وطبّقها فى البلاد التابعة لحكومة الخلافة الإسلامية، أشبه ما تكون بالاتحاد «الفيدرالى» الذى يحاوله رجال السياسة فى العصر الحاضر.

الإقطاع في رأى «النظام»، والغاية منه:

لقد رأى «النظام» عجزًا فى الخزينة بسبب الحروب المتلاحقة وبوار الأرض، ولا يجوز فرض الضرائب مادامت الأراضى خرابًا، لذلك أقطع كبار القواد إذا أظهروا بسالة فى الميدان، وإخلاصًا للدولة بشرط أن يقوموا بتموين الجيش وإعداده للحضور فى موسم الربيع من كل سنة إلاّ إذا دعت الظروف لغير ذلك[1]. فكان هذا سبب عمارة البلاد وكثرة الغلات[2].. وقد شملت الإقطاعات بلاد فارس ومسقط والشام، وبقى هذا النظام سائدًا إلى ـ عهد صلاح الدين الأيوبى[3] ـ بل استمر إلى اليوم الذى كتب فيه السبكى طبقاته[4].

وإذا رجعنا إلى مرسوم الإقطاع الذى أصدره السلطان «ألب أرسلان» حينما أقطع ـ قهستان ـ ونواحيها إلى الأمير ـ عميد الملك ـ أحد قواد الجيش ورجال الديوان.. نراه بعد مقدمة مفصّلة يشرح فها تقدير البلاط لجهود المخلصين من الزعماء.. وكان من واجبه أن يجزيه على جميل صنعه كما يعاقب الخائن على سوء عمله.. يشترط عليه أن يعرض منافع هذه البلاد وأموالها ومحصولاتها وخراجها على الديوان الأعلى، وقد أرجع إليه الحل والعقد فى المشكلات، والأمر والنهى فى المعضلات ثم يعيد له النصح بمراعاة جانب الرعايا وأن

(١) العماد الأصبهانى ـ آل سلجوق.
(٢) السبكى جـ ٣ ص ١٣٩.
(٣) محمد عبد الرزاق ـ كتاب «نظام الملك» (عن «ألين بول» فى مقدمته لحياة صلاح الدين الأيوبى).
(٤) طبقات السبكى جـ ٣ ص ١٣٩.

يشملهم بالعدل ويرضى نوابه بالعفو عن الرسوم المجهدة والخارجة عن الحدود المقررة وألا يكلفوهم فوق طاقتهم ـ إذ لا يكلف اللّه نفسًا إلاّ وسعها ـ وأن يحصّلوا أموال الديوان بكل رفق وعطف ثم يختمه بتوجيه الخطاب إلى رؤساء وأعيان المقاطعة بلزوم الانقياد والاحترام له.

ولا نخال «النظام» فى أهدافه تلك إلاّ صورة صادقة تعبر عن آمال جسام كانت تجول فى خواطر عظماء العالم الإسلامى، وأمانٍ كبار كانت تجيش فى أعماق نفوس العامة من الناس، لذلك لم يعلن عن مقاصده ووسائلها حتى وجد من الناس أفواجًا تلتحق بالجيش لتجاهد فى سبيل اللّه، وأخرى تنتمى لمدارسه وتجتهد فى سبيل العلم من أجل الدعوة الخالصة لدينه.. وبقى هو ثابتًا على مبادئه وخططه، مؤمنًا بها، ولن يحيد عما آمن به أنه الحق.. وبقى إيمانه صافيًا نقيًا فى أعماق نفسه فلم يعش إلاّ له ولم يمت إلاّ فى سبيله.

وكان من حسن طالع الدولة الفتية وهى على تخوم بلاد غزنة وتركستان فيما وراء النهر، تروم فتحها وإخضاعها، وعلى مقربة من أسوار القسطنطينية عاصمة بيزنطة تريد هدمها وتحطيم قلاعها وحصونها وقد اتخذت من أصفهان تارة ومن الرى أخرى ومن مرو ثالثة فى إقليم خراسان قلب فارس، حاضرةً لها، ومركزًا لحضارتها..

كان من حسن طالع تلك الدولة الناشئة أن تجد أمامها رجلاً «كالنظام» كسب من الخبرات ألوانًا مختلفة ودرس من علوم عصره فنونًا متنوعة، وعرف من طبائع الناس ومجاهيل الطرقات، واختلاف المناخات فى البلاد التى جابها وطوّف فى أنحائها، ما يمهد لنجاح الفتوح التى يهدف سلاطين السلاجقة إليها.. فإننا إذا تتبعنا حركة الفتح التى استأنفها السلطان ـ ألب أرسلان وترسّم خطاها من بعده ـ ملكشاه ـ نجد الوزير ـ نظام الملك ـ محور النشاط العسكرى مثلما كان باعثًا لحركة النشاط العلمى والسياسى،.. وأنه كان الملك غير المتوّج الذى يحكم باسم الخليفة والسلطان معًا[1] وإن كان وزيرًا لثانيهما

(١) ابن رجب ـ ذيل طبقات الحنابلة ـ حوادث سنة ٤٦٠هـ.

فقد كان الخليفة يخشاه أكثر مما يخاف سلطانه[1]. . وهذا ما سنتعقبه من سيرته وهو منصرف بقلبه وعقله نحو الفتح فى عهدى السلطانين ألب أرسلان وملكشاه. . ثم إنشائه المدارس النظامية وإقامته الدولة العادلة كما تصوّرها فى الفصول الثلاثة من هذا الباب.

بل كان حسن الطالع ـ اذا كان للناس طوالع سعد ونحس ـ قد أدى لآل سلجوق خدمة قلَّ أن يؤديها غيره لغيرها فى التاريخ فقد نشأت دولتهم والجبهات العدائية من حولهم فى حالة من الضعف بسبب التفكك الدينى والانحلال السياسى إلى درجة يسهل معها الفتح.

وكان أول ما لقى سلاطين السلاجقة الأول من ظواهر طوالع الملوك السعيدة ضعف الخلافة فى بغداد بسبب التطاحن المريع بين الاتراك وأمراء آل بويه من جهة والتنافس الفظيع بينهم وبين دار الخلافة من جهة أخرى حتى لم يقو الخليفة والبويهيون معًا على الصمود أمام بطش قائد الترك البساسيرى ـ وقيامه بالدعوة إلى الفاطميين.

ولا نغلو فى القول: إن ادعينا أن بقايا ملوك غزنة فى هذا العهد صاروا ألعوبة فى أيدى سلاطين السلاجقة كما كان مصير ملوك الديلم ـ الجبل ـ إلى أن قضوا على آخرهم.

ولم تكن الخلافة فى مصر أحسن حالاً من منافستها الخلافة فى بغداد فقد كانت تقاسى أزمات سياسية واقتصادية بسبب الحروب بين العبيد والاتراك وانشغال الناس عن الزراعة التى تسبّبت عن وقوف مياه النيل عن الارتفاع عدة سنوات حتى تفرّق أهالى مصر فى سائر البلاد وحتى وصلت أم المستنصر وبناته إلى بغداد، ولو لم يضطر السلطان ـ ألب أرسلان ـ لترك مصر لمقابلة جيوش بيزنطة الزاحفة على خراسان لكان النصر حليفه فى فتح القاهرة المعزّية.

أمّا دولة الرومان فى الشرق فقد كان تعانى اضطرابًا سياسيًا فى الداخل

(١) نفس المصدر ـ حوادث سنة ٤٦٠هـ.

وانقسامًا دينيًا بين الكنيسة فى الشرق والغرب. وقد شهد عرش بيزنطة خلال عشر سنوات ما بين ـ سنة ١٠٥٠ و ١٠٩٠هـ ـ ثمانية قياصرة كان من بينهم ثلاث نساء آخرهن ـ بودرشيا ـ التى لم تستطع القيام بالوصاية على ابنها ولم تقو على مجابهة المتآمرين على العرش وحدها فطلبت الزواج بالقائد ـ رومانس ديوجنيوس ـ فولى العرش باسم ـ رومانس الرابع ـ التى وقعت معركة ـ ملاذكرد ـ فى أيامه كما سيأتى وصفها.

وكان «النظام» فيما عمل به من سياسة وتدبير، وقام بوضعه من نظم وتعاليم قد اتخذ من سِيَرْ مشاهير وزراء الدولتين البويهية والغزنوية قدوة يستوحى منها ما انتهوا إليه من تجارب وينتفع بما لحقهم من أخطاء وهفوات.. فحينما نقرأ كتابيه: السياسة والوصايا ـ نرى أسماء ابن عباد، وابن العميد، وأحمد بن الحسن الميمندى، وأحمد بن عبد الصمد تتردد فى ثنايا أقاصيص الاستشهاد بسلوكهم. وإن كان فى عنايته بابن عباد وابن عبد الصمد كانت أكثر.. وفيها من الموافقات الطريفة لحياة «النظام» ما هو جدير بلفت نظر الدارسين، والقيام بدراسة مقارنة بينهم.

* * *

● الفصل الأول

الفتوحات السلجوقية النظامية

التخطيط النظامي لنجاح الفتح الخارجي

وقمع الثورات الداخلية. في عهدي ـ

ألب ارسلان وملكشا.

معركة ملاذكرد ـ ونتائجها.

التوسّع الخارجى والأمن الداخلى
فى عهد «نظام الملك»

كان ممّا تميزت به دولة السلاجقة فى أسلوب الحكم نظامها العسكرى الذى استطاعت بواسطته أن تقف أمام جحافل الروم الغازية ثم تقوم بدور المهاجم من أجل التوسع ونشر الدين فقد نشأ سلاطينها نشأة عسكرية وتربوا فى الميادين واشتركوا فى ساحات القتال وهم مازالوا أمراءً صغارًا فقد أرسل الملك «جغرى بك داود» ابنه «ألب أرسلان» على رأس جيش وهو لم يزل فتى.. وكذلك فعل هذا مع ابنه ـ ملكشاه ـ إذ درّبه على قيادة الجند وهو شاب، مثلما كان الخلفاء يرسلون أبناءهم إلى البادية ليتعوّدوا خشونة العيش وممارسة الصيد والفروسية.

ومما دفعهم على هذه النشأة أن الحرب ـ وتعنى الجهاد ـ حينذاك كانت من شرائط الملوك والسلاطين فى تلك العصور، فالسلطان لا تعترف به الرعيّة ما لم يكن شرعيًا، ولا يكون شرعيًا ما لم يقرّه الخليفة، ولا يقرّه هذا إلاّ إذا نجح فى فتوحاته وبرهن على جدارته فى إخماد الفتن المحيطة به، وفرض سيطرته على الولايات التى دخلها عنوة أو حربًا ليدلل على قدرته على حماية الخلافة من أيدى الطامعين فيها، كما حدث لزعيم آل بويه ـ معز الدولة ـ وكبير آل غزنة ـ محمود ـ ومؤسس دولة السلاجقة ـ طغرلبك.

وكان من عادتهم قيادة الجيش وإنهم أكثر التزامًا بها[1] ممن سبقهم من

(١) دلّتنا على هذا سيرة هؤلاء وأولئك.

ملوك آل بويه، وذلك يرجع إلى طبيعتهم ونشأتهم فقد ورث «ألب أرسلان» هذه العادة عن عمّه «طغرلبك» عن جدّه سلجوق.

ومن عاداتهم فى الحرب إذا فتحوا بلاداً أخذوا أبناء أميرها أو إخوته أو أقرباءه رهينة، وكانت هذه العادة مألوفة منذ عهد طغرلبك فقد ذكر ـ ابن الأثير ـ بأن صاحب تبريز أطاعه وأعطاه ولده رهينة، وكذلك أطاعته سائر تلك النواحى فأبقى بلادهم معهم وأخذ رهائنهم[1].

وكان من حسن طالع هذا السلطان أن يجد أمامه تلك الجحافل خائرة القوى وأن حكامها وقوادها فى خلاف وشقاق، فلم تبلغ أنباء الفتوح التى انتصر فيها ـ طغرلبك ـ مسامع إمبراطور الروم حتى بعث إليه أموالاً كثيرة[2] ولم يستأذن للصلاة فى جامع القسطنطينية من ملكة الروم حتى وافقت فصلى وخطب للإمام القائم بأمر الله[3]، ثم والى هجماته ثلاث مرات على أرمينية واقتطع منها عدة مدن[4] على الرغم من انشغاله بالفتن الداخلية وقصر مدته فى الحكم.

وليس غريباً على هؤلاء أن يتقنوا فنون الحرب وأن ينتصروا فيها بعد أن مارسوها صغاراً وهيأتهم لها الطبيعة وظروف الحكم كباراً.. ولكن الغريب أن ينسب المؤرخون فضل هذه الانتصارات إلى سعى «النظام» وحنكته وتدبيره للأمور وتنظيمه للخطط ومشاركته العملية مع الجيوش، وهو مما لم نعرفه عنه أو عن أسرته من قبل.. فإن الذى دلّتنا عليه النصوص التى عنيت بأخبار الفتوح فى عهدى ـ ألب أرسلان وملكشاه ـ أن «النظام» كان ذا دراية بأصول الحرب، وخبرة بقواعد الفروسية، وبراعة فى خطط الهجوم والدفاع وأنه كان على رأس كتائب الجند يقودها للفتح مرة وفى القلب منه إلى يمين السلطان يساعده ويرشده مرة أخرى. وكان اسمه يتردد مع السلطان فى كل جولة ونصر

(١) الكامل ـ حوادث سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م.

(٢) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٨ ص ٢٣٣.

(٣) السبكى ـ الطبقات جـ ٢ ص ٢١٩.

(٤) اليافعى ـ مرآة الجنان جـ ٣ ص ١٣٩، والغياثى فى تاريخه.

حتى كانت سيرته سجلاً حافلاً بالانتصارات بحيث لم نقرأ فى تاريخه اخفاقًا فى موقعة أو انهزامًا فى معركة.. وهذا من نوادر المصادفات فى أحداث الحروب وسير عظماء القواد وبخاصة الوزراء، ولعلّ السرّ يعود إلى ما عرف عنه من انتهاز للفرصة وحماس للعقيدة، وسعة فى الذكاء، وإفراط فى الدهاء.

حكى عنه أنه حينما أراد دفع أجرة الملاحين الذين عبروا بالسلطان وجيوشه نهر جيحون حوّلهم على العامل بأنطاكية، ولمّا شكوه قال لسلطانه: «ليرى الناس مقدار فسحة الملك»[1]. وأنه عندما وصله رسول الروم ومعه الخراج فى أصبهان أخذه معه إلى كاشغر فيما وراء النهر ليشهد الفتح وسعة المملكة، وحينئذٍ يأذن له بالعودة إلى بلاده ولمّا سئل عن ذلك قال: «أحب أن يذكر التاريخ عنّا أن ملك الروم حمل الجزية إلينا وأوصلها إلى باب كاشغر»[2].

والحق أنه لم يألُ جهدًا ويدخر طاقة فى سبيل إنجاح مسعاه وتنفيذ مشروعه فلم يستقر ـ ألب أرسلان وملكشاه ـ على العرش ويجلس إلى جنبهما على كرسى الوزارة حتى سار بهما إلى الميادين واحدًا تلو الآخر، ووجد فى فتوة السلطان الجديد وحيويته، وتدريبه العسكرى ومرانه على الحرب ما يحفّزه على نيل مأربه وبلوغ مرماه ومقصده.

فى عهد «ألب أرسلان»:

خلف السلطان ـ ألب أرسلان ـ أباه جغرى بك داود ـ بعد وفاته سنة ٤٥٠هـ على خراسان، وكان له من العمر حينذاك ثلاثون عامًا تقريبًا[3]، وكان شجاعًا باسلاً لا يهاب الموت كما دلّ عليه اسمه[4]، وشهدت على صحتها

(١) اليافعى ـ مرآة الجنان جـ ٣ ص ١٣٩، والغياثى فى تاريخه.

(٢) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ١٠ ص ٧٠ ـ حوادث سنة ٤٨٢هـ.

(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٣٨.

(٤) من المعانى التى قالها المفسرون فى اسمه: قلب الأسد، والأسد الباسل.

حقائق الأحداث الحربية بعد كبره، وبعد تسلمه العرش على إثر وفاة عمه ـ طغرلبك ـ سنة ٤٥٥هـ وقيامه بأعمال قمع الفتن والغزو، فإنه لم يبدأ عام ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م حتى توجه بجيشه إلى فتح أذربيجان ثم إلى أرمينية وجورجيا والكرج ـ وهو المدخل الرئيسى لفتح بلاد الرومان ـ. وفيها ترجّل «النظام» وعميد خراسان حتى تم لهم النصر[1] وقسّم السلطان جيشه الخضم إلى فرقتين: رأس إحداهما وقاد الثانية ولده ـ ملكشاه ـ مع الوزير «نظام الملك»، وزحفت أولاهما نحو حواضر المدن فى السهول وتسلقت الثانية الجبال لإخضاع الحصون والقلاع المنيعة، وكان النصر حليف السلطان فى هذه البلدان كما كان الفوز حليف ولى عهده مع «النظام» فاستولى على قلعة ـ سرمارى ـ وأخرى بالقرب منها. . يقول ـ ابن الأثير ـ إن الأمير ملكشاه أراد تخريبها فنهاه «النظام»، وقال ستكون ثغرًا للمسلمين وشحنها بالرجال والذخائر والأموال والسلاح. . ثم قلعة مريم نشين ـ وسرعان ما ضجر الأمير وأراد العودة لمنعتها وما يحول دونها من نهر السند. . ولكن الوزير المجرّب أشار عليه بالانتظار والصبر[2]. . فقد أعدّ لفتحها ما تحتاج إليه من سفن ورجال، وواصل قتالها ليلاً ونهارًا، وجعل العسكر يقاتلون بالنوبة حتى سقطت على يديه ثم فتح فى طريق عودته حصونًا أخرى[3].

ولم تعد الفترة بين سنة ٤٥٨-٤٦٠هـ مشجّعة على مواصلة الفتح فقد شغلته الثورات فى الداخل عن التوجه بجيوشه نحو التوسع فى الخارج، فقد بدت مطامع كبار الأسرة والولاة تظهر فى خروجهم على السلطان، ولإعلانهم العصيان فى الولايات. وقد أبلى «النظام» فى إعادة الأوضاع إلى حالتها الطبيعية بلاءً حسنًا، وبذل جهودًا كبيرة فى إعادة الأمن والاستقرار للبلاد. فهذا شهاب الدولة ـ قتلمش بن إسرائيل ـ وهو ابن عم السلطان طغرلبك، يثور

(١) أبو الفوارس الحسينى ـ أخبار الدولة السلجوقية ص ٤٠.

(٢) ابن الأثير، وابن العبرى، والحسينى.

(٣) الوصايا ص ٤١، وابن الأثير ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ جـ ١٠ ص ١٥ ـ ١٧.

مطالبًا بالسلطنة.. وقد حشد حوله جيشًا ضخمًا من الأوباش والرعاع. وتقول المصادر: إنه دمّر وخرّب القرى فى طريقه نحو الرى وأنه ملأ البوادى والسهول بالماء فى طريق جيش «ألب أرسلان» حتى خافه السلطان وشعر وزيره بذلك فقال له: ليذهب الخوف عن نفسه: «قد جعلت لك من خراسان جندًا ينصرونك ولا يخذلونك ويرمون دونك بسهام لا تخطئ وهم العلماء والزهّاد فقد جعلتهم بالإحسان اليهم من أعظم أعوانك[1].. فأبدى السلطان من الكياسة ودقة الخطة ما أوصله إلى النصر... فقد رتّب جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب، وكرّس تفكيره وتجاربه السابقة فى الحرب وكان عضده الأول فيها وزيره «النظام»، فقد كان مشيره ومنظّم خططه، وليس ذلك فحسب وإنما جعل نفسه قدوة للقواد والجنود فقد ارتدى لامة الحرب، وسار مع المقاتلين عند سفوح الوادى إلى أن التقى الجيشان وانهزم ـ قتلمش ـ وجيشه ولجأ إلى قلعة ـ كردكوه ـ فحوصر وقتل[2].. وقيل وجد ميّتًا من شدة خوفه، وبكى السلطان عليه وعزّاه «النظام» فيه..وأراد السلطان قتل الأسرى فشفع فيهم الوزير فأطلق سراحهم[3].

وهذا الأمير ـ قزل أرسلان ـ والى كرمان ـ يقوم بثورة مسلحة عنيفة بحيث اضطر السلطان لأن يخرج لقمعها على رأس جيش كبير بنفسه، فانهزم وسأل العفو فعفا عنه وأعطى بناته وجهزّهن[4].

وعاد السلطان ظافرًا بعد أن خضعت له هذه القلاع بأقاليمها وبقيت لديه أخرى يقال لها ـ بهنزاد ـ وثانية تسمى ـ اصطخر ـ فتوجه النظام بجيشه وحاصر أولاهما وأعلن للجند أن كل من يرمى سهمًا ويصيب فله قبضة من الدنانير ومن يرمى حجرًا فله ثوب نفيس، واستسلمت القلعة بعد حصار دام ستة عشر يومًا.. وبفتحها عظم مركز «النظام» عن ذى قبل، وعلت مكانته وزاد فى تحكيمه[5].

(١) ابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث سنة ٤٥٦هـ جـ ١٠، وسياستنامة فى مورد آخر.
(٢) البندارى ص ٢٧، والحسينى ـ أبو الفوارس ص ٣٠-٣٢.
(٣) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١٥ - حوادث سنة ٤٥٦هـ.
(٤) المصدر السابق ـ حوادث سنة ٤٥٩ هـ ويسميه قرا أرسلان.
(٥) نفس المصدر جـ ١٠ ص ٢٢.

وبقى «فضلويه» حاكم ـ كنجه[1] ـ على ولائه للسلطان منذ عهد إليه إقليم فارس وهو عائد من حرب كرمان سنة ٤٥٩هـ. ثم تمرد عام ٤٦٤هـ وتحصّن بقلعة ـ إصطخر ـ فأوفد «النظام» على رأس جيش لإخضاعه وأعدّ العدّة لحصار قلعته لمدة عام ولكنهم سرعان ما طلبوا الأمان لنفاد مياه الآبار والمخازن[2]. وقد استعان «النظام» بالموالين للسلطان من سكان تلك البقاع كما يقول هو نفسه. . ولسنا ندرى فيما اذا كان نفاد المياه بمكيدة حربية عملها «النظام» والموالون له أم الصدفة. . . ويروى أبو الفوارس أنه بعد أن غارت المياه لجأ إلى قصر مشيّد فى وسط القلعة فأشار الوزير على الأمير ـ هزاراسب ـ بالمسير إلى مسقط رأس ـ فضلويه ـ والقبض على أهله وحرمه، وما أن وصل الخبر إلى مسامعه حتى نزل بجنوده من القلعة واستقبلته طلائع جيش «النظام» وقبض عليه، وكتب الشيخ ـ على بن الحسن الباخرزى ـ كتاب الفتح، ثم جاء به الوزير أسيراً إلى السلطان فأمّنه وأطلقه[3].

موقعة «ملاذكرد»:

ولم يصرفه النصر الذى حققه عن متابعة الجهاد لتنفيذ خطته التوسعية ونشر الدين كما لم تنسه القلاقل والاضطرابات الداخلية عن مخاطر الدولتين: البيزنطية والفاطمية المتربصتين على الحدود القريبة، فقد كان السلاجقة يشعرون بفداحة خطرهما، بل كانوا يعتقدون بأن الرومان أقل خطراً عليهم من خلفاء «مصر» الذين يعيثون فى جسم الدولة بمبادئهم التى تبتطن القضاء على الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية معًا. وكانت الدولتان تشعران بمثل هذا الخطر على بقائهما من قبل دولة السلاجقة القوية فكانت كلما توجهت نحو واحدة منهما

---

(١) فى الوصايا «طنجة» وهو خطأ مطبعى وهو ميناء فى إقليم كرمان الواقع فى الجنوب الشرقى من إيران على بحر عمان.

(٢) الوصايا ص ٣٩ ، ٤٠.

(٣) أبو الفوارس الحسينى ـ أخبار الدولة السلجوقية ص ٤٢ ، ٤٣، وابن الأثير - الكامل - حوادث سنة ٤٩٤هـ جـ ١٠ ص ٢٩.

بهجوم أو دفاع تصدت الثانية لها بالزحف والإغارة مستغلة انشغالها بالحرب، وبعدها عن الثغور المتاخمة حتى أصبحت الدولتان معًا شغلها الشاغل فى وقتٍ واحد.

وكانت «بيزنطة» تعتبر ـ ملاذكرد[1] ـ حاضرة إقليم أرمينية منطقة «استراتيجية» تصدّ عنها عدوان المغيرين من الجنوب والجنوب الشرقى، وقد نشأت على حدودها دويلات قوى بعضها واتسع نفوذه حتى هدّد كيانها بالزوال. وكان فى بداية القرن الخامس الهجرى الدولة الفاطمية وفى منتصفه الدولة السلجوقية ـ فكان طبيعيًا أن تغتنم الامبراطورية الرومانية الشرقية ضعف الدولة المتاخمة فتتوسع على حسابها وتكتفى بفرض الإتاوات على أمرائها أولاً.. وإذا ما أنست ضعفًا أكثر انقضّت عليها وأدخلتها تحت حمايتها.. وكان طبيعيًا كذلك أن تقف من الدويلات الناشئة على حدودها موقف المناوئ لها المناهض لنظمها وحكامها، لأنها تتوقع منها الهجوم بين حين وآخر وإذا ما أحسّت فى إحداها قوة وخشيت بطشها سعت للإيقاع بينهما تارة ومماألأة القوى ومداهنتها أخرى.

وانتهج أباطرة بيزنطة هذه السياسة التى ورثوها عن سلفهم الرومان وظنوا أن إمارة الحمدانيين برئاسة ـ سيف الدولة الحمدانى ـ فى حلب ستمثل نفس الدور الذى قامت به دويلة ألفا سنة تجاه روما القديمة.. ولم يدُرْ بخلدهم أن الزمن قد تغيّر وأن بنى حمدان اليوم غير ألفا سنة بالأمس فسرعان ما خاب ظنهم فى خضوعها لهم، وتحقق ما توقّعوا منها وهو الهجوم على المدن التابعة لها، وبخاصة فى عهد الأمير سيف الدولة وبين سنة ٣٣٤ ـ ٣٥٦هـ = (٩٤٥-٩٦٧م)[2] لذا فقد حاولت إثارة المشكلات بين الخلافتين فى مصر القاهرة من ناحية، وبين سلاطين السلاجقة وخلفاء الفاطميين من ناحية أخرى وداهنت القوىّ فى كلٍّ منهما فأرسلت سفراءها محمّلين بالهدايا والتحف مرّة،

(١) ملاذكرد: تقع إلى الشمال من بحيرة ـ فان ـ فى أرمينية وقد اختلفت فى تسميتها المصادر الإسلامية العربية: انظر كتاب: مختارات من كتابات المؤرخين العرب. د/ سهيل زكّار/ ٣٠.

(٢) سيف الدولة الحمدانى ـ أو مملكة السيف ودولة القلم ـ د/ مصطفى محمد الشكعة ١٢٣ ـ زبدة الحلب فى تاريخ حلب ـ كمال الدين بن العديم.

وقامت بأساليب المجاملة الدبلوماسية ثانية، كما فعل القيصر ـ قسطنطين ـ السابع حيث أمر بإصلاح مسجد قسطنطينية، والدعاء فيه لطغرلبك[1] حينما بلغته أخبار غاراته الموفّقة على حدود الإمبراطورية، إذ كان احترام دين الفاتح من وسائل الترضية والإطاعة له.

ولهذا لم يشعر السلاجقة بالخطر عليهم من الجانب الشرقى من الدولة حيث لم يكن عليه فى ذلك العهد سوى خانات تركستان فى الشمال منه وبقية الدولة الغزنوية فى الشرق وليس فى هاتين الدولتين ما يخشى منه سياسيّا أو دينيّا، ولأنها قد ارتبطت بملوكها برباط المصاهرة ومعاهدات الصلح، ولأن معظم سكانها من سنّة المسلمين.

ولذلك لم تحل سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م حتى كانت جيوش السلطان ـ ألب أرسلان ـ رابضة فى حلب والشام تريد الزحف على مصر ومنها إلى الروم، ولكن بيزنطة ـ طبقًا لنهجها السياسى السالف الذكر ـ عاجلته واستغلت فرصة انصرافه لحرب الفاطميين بمصر فأرادت أن تبادئه بالهجوم والقتال قبل أن يقضى عليها، فتقدم الإمبراطور ـ رومانوس[2] ديوجينوس ـ على رأس حملة قوامها زهاء ثلثمائة ألف مقاتل باسم الصليب اشترك فيها الروم والروس والخزر واللان، والغز والقجمق والكرج، والأبخاز والفرنج والأرمن، وفيهم ثلاثون مقدمًا وألف ما بين: قس وقومس وبطريق[3].

وما أن سمع السلطان بذلك حتى قفل عائدًا وخلف ابنه مع فوج من عساكره بكورة حلب، وعبر ماء الفرات بسنابك الخيل دون السفائن والزوارق[4] حتى وصل مدينة خوى ـ من إقليم أذربيجان، فطلب السلطان من وزيره ـ النظام ـ بأن يرجع بزوجته ـ خاتون السفرية ـ والأثقال إلى همدان[5] ليمدّه بالجند إذا اقتضى الأمر، وليبقى إلى جنب ولى عهده إذا استشهد، وتقدم إليه بجمع

(١) ابن الأثير ـ الكامل جـ ٨ ص ١٩٢.

(٢) رومانس وفى المصادر الغربية ـ أرمانوس «ARMANOES»

(٣) ابن العديم ـ زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٥.

(٤) ابن أبى الفوارس الحسينى ـ أخبار الدولة السلجوقية ص ٤٧.

(٥) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٨ ص ٢٦٠ - حوادث سنة ٤٦٣هـ، والكامل ـ حوادث نفس العام.

العسكر وقال لهم: «أنا صابر فى هذه صبر الغزاة المحتسبين، صائر إليه مصير المخاطرين فإن سلمت فبنعمة من اللّه، وإن استشهدت فخليفتى ولدى ملكشاه»، فأجابوه بالدعاء والطاعة. وكان هذا من فعل «نظام الملك» وترتيبه ورأيه[1]. وعاد الوزير كما طلب إليه لحفظ العراق وخراسان ومازندران عن أهل العبث والفساد.. واتجه جيش ـ أرمانوس ـ صوب أرمينيا مخترقًا ولاية ـ خلاط ـ فى آسيا الصغرى حتى بلغ ملاذكرد ـ فكان لابد للسلطان من أن يسعى إليه عاجلاً ويقابله على الرغم من قلة عدد جيوشه وعتاده.. والتقى الجيشان، وكانت معركة حامية ضارية الوطيس استمرت بضعة أيام كان آخرها يوم الجمعة ٢٦ أغسطس سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م، حيث التحمت الجيوش من الظهيرة حتى الغروب وأبلى فيها الجيشان بلاءً مـّرا ثم انجلت عن أسر القائد الرومانى ـ رومانوس ـ وانتهت بالصلح على شروط أربعة: دفع فدية قدرها مليون دينار، وجزية سنوية قدرها ثلثمائة وستون ألفًا، وأن يتزوج بناته من أبناء السلطان وأن يطلق سراح جميع أسرى المسلمين[2].

ويذكر «النظام» لهذه الحرب من الأسباب ما يتفق مع بعض المؤرخين القدماء، فإنه عندما يتحدث عنها يشير إلى تجمع ملوك الفرنجة حول الإمبراطور وإبرامهم المواثيق لشن هجوم على دار الخلافة لتنصيب ـ جانليق ـ بدلاً من الخليفة[3].

كما أسفر الانتصار فى هذه المعركة عن نتائج ذات أهمية كبيرة استمرت عدة قرون منها: قيام دولة سلاجقة الروم فى شبه جزيرة الأناضول وعلى رأسها الأمير ـ سليمان قتلمش ـ الذى عيّنه السلطان «ألب أرسلان» واتخذ من «قونية» عاصمة له ثم استمر أبناؤه فى فتوحهم حتى وصلوا قرب شواطئ البحر الأبيض المتوسط وبحر مرمرة غربًا، وقاموا بدور كبير فى صدّ الهجمات الصليبية طوال قرنين من الزمان[4].. ومنها أنه لم يرتق ـ ملكشاه ـ العرش

(١) الحسينى ص ٤٨، والمنتظم جـ ٨ ص ٢٦١- حوادث سنة ٤٦٣هـ، وكذلك الكامل ـ نفس العام.

(٢) عنان ـ مواقف حاسمة ص ٩٠.

(٣) الوصايا ص١٩، وأبو الفوارس الحسينى فى تاريخه ص ٤٨-٤٩.

(٤) ابن الجوزى - المنتظم، وابن الأثير - الكامل ـ حوادث سنة ٤٦٣هـ.

حتى ورد رسول ملك الروم سنة ٤٦٦هـ ومعه كتابان للخليفة والوزير مكتوبان بالذهب بالسريانية وتحت كل سطر تفسيره بالعربية تتضمن الوساطة بينه وبين ملكشاه فى طلب الهدنة(١)، لذلك كان هذا الانتصار لدولة السلاجقة بداية النهاية للإمبراطورية البيزنطية والتمهيد للدولة العثمانية فى الاستيلاء على القسطنطينية على يد السلطان العثمانى محمد الثانى- الفاتح- للمرة الثالثة فى ١٩جمادى الأول ٨٥٢هـ.

فى «عهد ملكشاه»:

وبعد معركة ـ سمرقند ـ التى قام بها السلطان ـ ألب أرسلان ـ سنة ٤٦٥هـ وقبل وفاته على أثر جرحه بيد ـ يوسف الخوارزمى ـ أمر القواد بمبايعة ابنه ـ ملكشاه ـ للمرة الثالثة وعيّن وزيره ـ النظام ـ وصيّا عليه وطلب احترامهما وإطاعة أوامرهما(٢). وكان قد إعدّه اعدادًا ملكيّا ودرّبه تدريبًا سلطانيّا، مثلما أعده أبوه ـ جغرى بك ـ من قبل وقد ساعده على ذلك وزيره النظام حيث رغّبه فى دراسة العلوم ومرّنه على المثابرة والجلد فى الحروب، وبهذا تعاون الوالد والوزير معًا على تهيئته لعرش آل سلجوق، ولذلك لم يكتف بتدريبه النظرى كما يربى معظم أبناء الملوك وإنما أنزله الميادين وأشركه فى القتال حتى مرن على الحرب وعرف خططها وخدعها.

وكذلك أراد له أن يتعلم أصول الحكم وتدبير شئون الرعايا بالممارسة وليس عـن ظهر قلب فمنحه حكومة ـ كيلان ـ وأصدر بذلك منشورًا لانشك بأنه كان لهذا الغرض النظامى، وللأمير ملكشاه خاصة وان كان قد وصلنا غفلاً من الاسم(٣) حيث أسبغ عليه من الصفات ومهّد له من الدعوات فى المقدمة ما لا يمكن أن تكون لغيره من أبنائه الستة(٤)، فهو يدعو له: «بكمال التفرد،

(١) سبط ابن الجوزى ـ المرآة - حوادث سنة ٤٦٦هـ.

(٢) ابن الجوزى - المنتظم- حوادث سنة ٤٦٥هـ ، وسنة ٤٦٦هـ.

(٣) عثرنا عليه ضمن مخطوطة قديمة باسم «مجموعة منشآت حيدر»- انظر الملحق رقم ٣ مراسيم

(٤) هم: «ملكشاه، واياز، وتكش، ويورى برش، وتتش، وأرسلان أرغو، ومن البنات ثلاث: سارة وعائشة وبنتًا أخرى». (ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ٣٠).

والاستقلال، ومخايل العز والإقبال لأنه ثمرة دوحة الدولة وغصن بستان السلطنة، وواسطة عقد الملوكية وزهرة روضة الفضيلة الإلهية وحينما ينتقل إلى حيثيات منحه حكومة «كيلان» يقول عنه: «لمّا كنا نرى من توشحه بالفنون السلطانية، واستعداده لارتقاء المدارج الملوكية الخسروانية حيث لا استطاعة لغيره الوصول إلى ذروة كماله.. أحببنا أن ننعم على مثل هذا الولد الذى هو مطمح نظر الأمانى، مملكة (كيلان) .. على سبيل الملكية، وأجرينا له حكم نواب ديوانه وتصرفاتهم لأجل تربية غصن العدل والإنصاف لكى ترتفع حشمة هذا الولد المستحق لكل تربية والأهل لكل عطية.. ثم يوصى ولده بالرعايا خيرًا. فينشر جناح جميله، وأستار ترفيهه، ويذيقهم لذة الأمان وحلاوة الإنصاف ولا يعدل نوابه عن القانون المعهود والرسم القديم فى تحصيل أموال الديوان لينال من حضرتنا ومن الزمن حسن الأحدوثة ودعاء الخير الذى يسند قاعدة الدولة.. ثم يختمه بأمر رعايا المملكة وأشرافها والدهاقين وأرباب الحرف والزرّاع بإطاعة ومتابعة أوامره.. وأن يمتثلوا حكمنا ليستحقوا زيادة الرفاهية.. واللّه أحكم وهو خير الحاكمين».

وبناءً على توصية السلطان الراحل فقد اجتمع قواد الجيش وأعيان الدولة فى حلف خطير لإجراء مراسيم الجلوس وبايعوا السلطان «ملكشاه» سنة ٤٦٥هـ وعمره ـ حينذاك ـ ثمانية عشر عامًا، وقال فى خطاب العرش، حينما طلب إليه «النظام» أن يتكلم: «سيكون أكبركم كأبى، وأوسطكم كأخى، وأصغركم كواحد من أبنائى»[1]، وهى كلمة تدل عل نزعته العادلة وامتثاله الآداب الإسلامية وقد تكون من وضع الوصى عليه «نظام الملك»، كما تولى هو وأبو سعد المتولى أخذ البيعة له من الأمراء والوجهاء وأطلق الأموال عليهم، لذلك أجمعت المصادر التاريخية بأن «النظام» لعب دورًا كبيرًا فى تنصيب السلطان الجديد[2]، كما كان له الفضل الأكبر فى إرساء دعائم الدولة وانتصاراتها الحربية.

(١) حيث مات سنة ٤٨٥هـ وله من العمر سبع وثلاثون سنة وبضعة أشهر ومدة ملكه ١٩ سنة وعدة شهور. ابن الجوزى ـ المنتظم، وابن الأثير ـ الكامل- حوادث سنة ٤٦٥هـ، وسنة ٤٨٥هـ.

(٢) المصدر السابق.

وقد أثبت السلطان الجديد مقدرة فائقة فى الحرب، ورغبة نادرة فى الإصلاح والتعمير حتى عدّه أحد المؤرخين المؤسس الحقيقى للإمبراطورية السلجوقية المترامية الأطراف وذلك لنشاطه وحنكة وزيره إذ نفخا فيها الروح التركية والإسلامية حقّا[1].

ومع أننا لا نعرف عن ـ النظام ـ وهو العقل الموجّه لسياسة الدولة، هذه النزعة العنصرية وإنما نجده من خلال كتاباته وتصرفاته يتذمّر من عنجهية الأتراك وغلظتهم كما سبق، وينتهز المناسبات المختلفة لتحضيرهم حتى ينسجموا ويندمجوا فى الجماعات الشعبية المتمدنة.. فسواء أكان المؤسس لدولة السلاجقة ـ طغرلبك ـ أو ـ ألب أرسلان ـ أو ـ ملكشاه ـ فإنهم قد تعاونوا على إنشائها وتوطيد دعائمها ثم اتساع رقعتها حتى كان لثالثهم من أقصى بلاد الترك الى أقصى بلاد اليمن، وقد خطب له من حدود الصين إلى آخر الشام، وحتى قال «النظام» عنه: «كم وقعّت بإطلاق أزمات[2] لرسل ملوك الروم واللان والخزر والشام واليمن وفارس»[3]، إلاّ أنه لم يتربع على العرش حتى صدقت ظنون أبيه فى وصيته، وخرج عليه أعضاء أسرته مطالبين بالعرش. وكان أول هؤلاء وأشدّهم بأسًا وأقواهم حجة هو ـ قرا أرسلان قاورت ـ أخو السلطان المتوفى ولم يكن يخفى عليه أن النصر لا يكون له إلاّ إذا كسب الجيش وربح مؤازرته، فاستمال القواد والجنود بزيادة رواتبهم وتحسين حالتهم إذا أتى إلى الحكم فقامت بذلك مظاهرتهم مطالبين بمجيىء «قاورت» إلى العرش وأحقيته بالسلطان، وكتب إلى ابن أخيه فى نفس الوقت يقول: «إنى أحقّ منك بالعرش لأنى الأخ الأكبر للسلطان الراحل وأنت أصغر أبنائه»، وسار بجيشه إلى الرى.

لقد أدرك «النظام» خطورة هذه الفتنة وشدّتها، وأنها تهدد عرش السلطان

(١) إبراهيم قنص أوغلو ـ الإمبراطورية السلجوقية فى عهد ملكشاه ص٨ ط- إستانبول سنة ١٩٥٣م بالتركية.
(٢) ولعلها «ذمات» وهى الصكوك والإيصالات. وقد تجمع هذا الجمع ولعلها زمانات وهى عقود استئجار والتزام الأراضى لمدة معينة.
(٣) المنتظم، والكامل ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

ومنصب وزيره وأنها ستقضى عليهما وعلى أهدافه إذا كتب لها النصر فقرر الإسراع بجيشهما نحو الرى حتى بلغاها قبل وصوله، وأجاب على رسالة عم السلطان: «إن الابن أحقّ بالعرش من الأخ»[1].

وأسر ـ قاورت ـ وأدخل السجن ولكن ما أدخله فى روع الجنود من زيادة رواتبهم لم يزل يدفعهم إلى التظاهر والعصيان، والتهديد بمبايعة الأمير السجين إذا لم تلب طلباتهم.. وأحسّ «النظام» بحرج الموقف ودقته وأنه لابد وأن يتخذ رأيًا حاسمًا لقطع النزاع، فوافق رؤساء الجيش على مشروعية مطالبهم، ووعدهم بأنه سيحدّث السلطان ويقنعه بتنفيذها، وهدأت الأحوال، وذهب لمقابلة السلطان وأخبره بما انتهى إليه الحال، وأشار عليه، كما يذكر معظم المؤرخين ـ بقتل عمه فى الحال فأصدر السلطان أمره وقتل.

وما أن عاد رؤساء الجيش ليتفروا عما تمَّ بخصوص مطالبهم حتى فاجأهم «النظام» بأنه ما استطاع مفاتحة السلطان بأمرهم حيث وجده حزينًا على فقد عمه الذى امتصّ السمّ من خاتم فى أصبعه ومات فى السجن، فعادوا واجمين خائفين، ولم يستطع أحدهم القيام بحركة مناوأة، واستتبّ الأمن فى البلاد[2].

ولم يتخلص السلطان من عمه حتى زحف نحو ـ سمرقند ـ وعبر نهر جيحون سنة ٤٦٧هـ ليأخذ بثأر أبيه من البلاد التى اغتيل فيها[3]، ولكنه لم يصل إليها حتى هرب حاكمها ـ خاقان التكين ـ فتوسط له «النظام» وأجيب لذلك[4].. ثم استمرت شفاعات «النظام» تترى على السلطان فى طلب الصفح عن الخارجين بعد اعتذارهم، وإعادتهم إلى مقر وظائفهم واتخذ وسيلة جديدة هذه المرّة فى سياسته الحربية كان فيها رسول سلام ابتداءً من سنة ٤٦٧هـ -

(١) أبو المحاسن ـ النجوم الزاهرة، الصفدى.

(٢) ابن الجوزى، وابن الأثير والراوندى فى راحة الصدور، وحمد الله قزوينى فى تاريخ كزيدة وأفضل الدين كرمانى، وبدائع الزمان وابن العبرى.

(٣) سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان - حوادث سنة ٤٦٧هـ ورقة ١٥٣.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل- حوادث سنة ٤٦٦هـ.

٤٧٣هـ، حيث خرج على السلطان أخوه ـ تكش ـ بعد أن التحق بجيشه الجنود الذين فصلهم من سلك الخدمة العسكرية خلافًا لرأى وزيره «النظام»، وكان بـ«بوشنج» واستولى على مرو الروز ومرو الشاهجهان، فسار السلطان إلى خراسان ودخل نيسابور قبل أن يصلها أخوه ثم التقيا «بترمذ» واصطلحا أيضًا سنة ٤٧٦هـ[١].

ثم مرت عشر سنوات شغل خلالها بزيارة المشاهد المقدسة وجولات التعرّف على أمراء الأقاليم وأحوال الرعية قدّرها بعضهم باثنتى عشرة جولة تفقدّ فيها احتياجاتهم بنفسه وبنى المخافر فى السُبل فانتشر الأمن من حدود الصين إلى البحر الأبيض المتوسط، ومن جورجيا إلى اليمن جنوبًا[٢]. فقام بجولة من أصبهان إلى الأنبار ومنها إلى الموصل، ثم سار إلى حلب حيث قضى على بعض الخلافات بين أمرائها، كما زار مشهد «موسى بن جعفر» فى الكاظمية وقبر «معروف الكرخى» و «أحمد بن حنبل» فى بغداد وضريح «الحسين» وأبيه الإمام على بن أبى طالب فى كربلا والنجف سنة ٤٧٩هـ[٣].

ولم يحل عام ٤٨٢هـ حتى رجع السلطان ملكشاه إلى سمرقند حيث شكاه أهلها من ـ أحمد خفر خان ـ فأخضعها وعفا عن حاكمها كما قصد ـ كاشغر ـ فأطاعه ملكها فأعاده إلى ملكه[٤]. وكان وزيره «النظام» يرافقه فى جميع سفراته وجولاته هذه، وهو الذى يدبّر الأمور له حيث كانت تلهيه مجالس الشراب والندمان غالبًا، وتستهويه مناظر الصيد والقنص أحيانًا حتى بنى من قرون صيده منارة فى ظاهر الكوفة ومثلها فيما وراء النهر[٥].

على أن دولة الفاطميين لم تأخذ من اهتمام السلطان ووزيره مكانتها السابقة

(١) ابن الأثير ـ الكامل- حوادث سنة ٤٧٢هـ جـ ١٠ ص ٤٧، وقد ورد اسمه تتش. وأيضًا ابن خلدون ـ العبر.

(٢) مير على ـ تاريخ العرب ص ٢٧١-٢٧٢هـ .

(٣) ابن الأثير - الكامل ـ حوادث سنة ٤٧٩هـ.

(٤) ابن أبى الفوارس - أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٢.

(٥) ابن الجوزى - المنتظم- حوادث سنة ٤٨٥هـ، واليافعى - مرآة الجنات جـ ٣ ص ١٢٩ ـ حوادث نفس العام، وابن بطوطة - رحلته جـ ١ ص ١٠٩.

وربما كان لضعفها واستبداد الوزير ـ بدر الجمالى ـ فى شئون حكومتها مما قلّل من الاهتمام بها والخوف منها، لذلك نرى السلطان قد أوكل الأمر بتنفيذ خطة التوسع، بفتح مصر والمغرب إلى أخيه ـ تاج الدولة تتش ـ فملك «دمشق»[1] وحلب سنة ٤٧٩هـ، ثم طلب من الأميرين «قسيم الدولة، وبوزان» أن يلتحقا بجيشهما فى خدمة أخيه ـ تاج الدولة ـ المذكورَ حتى يستولى على ما للخليفة ـ المستنصر ـ بساحل الشام ثم يسيرون إلى مصر، ولكنه مات قبل تحقيق أمنيته[2].

وفضلاً عن ذلك فإن علاقة «بدر الجمالى» بـ«النظام» كانت في تلك الآونة ودّية كما يظهر، فقد حكى أنه طلب إليه أن يرسل جثمان الإمام الشافعى ليدفنه إلى جنب نظامية بغداد سنة ٤٧٤هـ وأرسل له من أجل ذلك هدية جليلة، وسار أمير الجيوش فى موكب حافل إلى موضع القبر لينبشه فضجّ الناس وهمّوا برجم الوزير فاستشار الخليفة فى الحال وجاءه الجواب بتنفيذ ما طلبه «النظام» وطرد العامة والغوغاء.. ثم يستمر المقريزى فى سرد منقبة ـ للشافعى ـ حيث خرجت رائحة عطرة من اللحد عند فتحه أوقعتهم صرعى فاستغفروا وأعادوا ردم القبر وانصرفوا، ورجع الجواب إلى «النظام» بوصف ما حدث فى مرقد الإمام وبهدية عظيمة معه وقرئ الكتاب بنظاميته واجتمع الناس لسماعه فكان يومًا حافلاً قلّ أن شهدته بغداد مثلما كان فى القاهرة[3].

وليس بمقدورنا سوى التكهن لا الحكم القاطع بدوافع موافقة الخليفة الفاطمى ووزيره على نقل جثمان الإمام الشافعى.. هل هو تحقيق رغبة ـ النظام ـ وترضيته أم التخلص من ضريحه الذى هو دعوة للسنّة تنتشر بين صفوف العوام في بلد يريدها الفاطميون أن تكون خالصة لمذهبهم الشيعى.. أما دوافع «النظام» فبوسعنا الجزم بأنها دينية بحتة، إذ أراد أن يكون جثمان الإمام الذى

(١) ابن الفوارس ـ أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٢.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث ٤٧٩ : ٤٨٥هـ.

(٣) المقريزى ـ الخطط جـ ٢ ص ٤٦٢ ط مصر سنة ١٢٧٠هـ.

يعتقد بسلامة مذهبه واعتداله إلى جنب مدرسة كتب على بابها ـ اسم الحسن الأشعرى ـ ولا يدرّس فيها إلاّ عالم شافعى ولو كان الغرض سياسيّا خالصًا لكانت نظرة «النظام» قصيرة خاطئة إذ إن بقاء الجثمان فى القاهرة من خير الوسائل للتعلق به والميل إليه، كما هو حاصل الآن.

واغتيل «النظام» ولم يتحقق له ما طلب، وجاء بعده «صلاح الدين الأيوبى» فحقّق له ما أراد وبنى مدرسة للشوافع إلى جنب ضريح الإمام الشافعى، وفى القاهرة المعزية نفسها التى كانت مركز الدعوة الفاطمية.. ومات السلطان ملكشاه فى بغداد بعد وزيره «النظام» بشهر وعدة أيام سنة ٤٨٥هـ ميتة يكتنفها الغموض وتحيط بها الريب والشكوك، قيل إنه إفتصد بعد أكلة من لحم الصيد فحمّ ومات.. وقيل على إثر حمّى شديدة.. وقيل إن «خردك» سمّه فى خلال[1].

ومن المحتمل أن يكون موته نتيجة مؤامرة من زوجته ـ تركان خاتون ـ والخليفة ـ المقتدى باللّه ـ معًا ليتخلص هذا منه وينتقم لنفسه وعرشه، ولتحقيق رغبة تلك فى تولية ابنها ـ محمود ـ على العرش، والذى يقوّى هذا الاحتمال ويؤيده هو اعتراف الخليفة بالسلطان الجديد مباشرة على الرغم من صغر سنّه حيث لم يتجاوز السادسة من عمره، وحصول والدته على فتوى بجواز ذلك من الإمام «المشطّب الفرغانى» وإعادتها ـ أبو الفضل جعفر ابن الخليفة من ابنتها «مها ملك» إلى أبيه.. ثم دَفْن ـ السلطان فى الشونيزيه دون أن يُصلَّى عليه أحد، وكتمان أمر وفاته على الناس ولم يشهد له جنازة ولا عمل له عزاء[2].

* * *

(١) وقيل جردك ـ ابن الجوزى ـ المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ جـ ٩ ص ٦٩ ـ ٧٤.

(٢) المنتظم- حوادث سنة ٤٨٥هـ. وروى صاحب مرآة الجنان: أنه حمل إلى خراسان جـ ٣ ص ١٣٩ ـ حوادث العام نفسه. وفى النجوم الزاهرة نقل إلى أصبهان ودفن فيها جـ ٥ ص ١٣٤، ١٣٥. وفى الكامل: وسارت تركان خاتون والسلطان محمولاً معها- حوادث سنة ٤٨٥هـ.